المشرق

الحماسة الدستورية

نظم الشاعر الاب لويس شيخو اليسوعي

غنيٌّ عن البيان انَّ اجود الشعر ما اختمرت به مشاعر قائله. لانَّ الكلام اذا ما تأثرت منهُ النفس وانطبع في اعماق القلب تكاد الطبيعة تقذف به عفواً دون تصنُّع ولا تمثل البتَّة. وان سبكتهُ وعرضتهُ على محكّ الانتقاد وجدتهُ مصوغاً بابلغ المعاني مفرغاً في اجود قالب من اللفظ والتعبير

على انهُ بين ضروب المنظومات ليس ما يفضلُ في ذلك الشعر الحماسي لانهُ يعبّر عن اشرف ما في قلب الانسان من العواطف ويترجم عمَّا يكنهُ صدرهُ من الخواطر السنيَّة والهمم السامية التي تنكبهُ عن الدنايا وتسمو بهِ الى المعالي فيذكر ما لاسلافهِ من المفاخر ويتوق الى مضارعتهم بالمآثر ويناصب كل ما يحول دونهُ من العوائق في ادراك غايتهِ الجليلة حتى انهُ يضحي في سبيلها كل نفس ونفيس

وان تصفَّحتَ تواريخ الامم الغابرة ووقفت على آدابهم وجدتهم في الحماسيَّات اشعر منهم في سواها من فنون الشعر وهم يقدّمون تلك المنظومات الحماسيَّة على غيرها ويكرّرونها في مفاوضاتهم ويتغنَّون بها في اناشيدهم ويلقّنونها صغارهم حتى تصبح كقسم من حياتهم الاجتماعيَّة وعمرانهم. فهذه الالياذة لهوميروس بين اليونان ونشيد إنياذه لورجيليوس بين الرومان وشاهنامه للفردوسي بين الفرس فانها كلها منظومات حماسيَّة تذكّر كل قوم بمفاخرهِ وتبعث في قلوب ذويهِ شواعر الحميَّة والتحمُّس

ولم يخرج العرب عن هذا الحكم وان كانت منظوماتهم الحماسيَّة قصيرةً لا

تتجاوز ابيات القصائد . وقد عُني بعض الائمة بتأليف تلك الآثار او نُخب منها اودعوها في مجاميع عُرفت بالحماسات كحماسة تمّام التي استفاضت شهرتها وحماسة البحتري التي نحن اليوم ساعون بنشرها وحماسة البصريين وحماسة الخالديين وغير ذلك مما يشهد للعرب القدماء بالنخوة والاباء

ولمّا أُعلن في اواسط الصيف المنصرم بالحكومة الدستورية وفُكّت الاغلال التي كانت تنوء تحتها نفوس العثمانيين باستبداد السلطة الحاكمة سابقًا نشطت الارواح وانطلقت الالسن وجادت قرائح الشعراء بفرحها الطبيعة وقد نُظم من ذلك الوقت الى الآن من القصائد ما لو جُمع لأربى على كل المجاميع الحماسيّة السابقة . ولما كان لهذه الاقوال شأن عظيم في تاريخ الآداب العصرية رأينا ان نُعمل فيها النظر احيانًا ونستوقف ابصار الادباء لئلا يندثر ذكرها وتطمس معالمها

وكان اوّل ما شعر به العثمانيون يوم الاعلان بالدستور الجذل والاعتباط فسرّي عنهم همّهم وثلج بالبشرى صدرهم واستهل قلم الشعراء بوصف فرحهم فقال الشاعر الوطنيّ جناب الامير شكيب ارسلان في مطلع قصيدة غرّاء :

ألا يا بني عثمانَ حبكمُ بُشرى لقد جاد ربُّ العرش بالنعمة الكبرى
وقد فزتمُ ذا اليوم بالغاية التي عليها رجالٌ قد فنوا دونكم قهرا
اطالت عليكم بغتةً شُرّد المُنى تُحقّق بعث الله مع عمرو اليسرى
انت وحجابُ اليأس قد حال دونها كما يشر الديّانُ من سكن القبرا
فمن غير وعدٍ بذّل الله حاكم لتضحي لكم رحمى وتندو لكم ذكرى
ويُعلَم انّ الله لا ربَّ غيره وليس سواهُ يملك النفع والضرّا
اراد تلافي الشرق من عثراته فألقى عليه من عنايته سترا

وانشد اخوه الاديب احمد عادل ارسلان معارضًا حالة البلاد بالبعث والنشور :

هذه الحياةُ فابن العُدمُ والعَدمُ وذا الضياء فابن الظُلم والظُلَمُ
لقد جلاها عن الاسلام ذو شُطَب ويفعلُ السيفُ ما لا يفعلُ القلمُ
يا بنيةً لم تزل في العسر نطلبها لا اليأسُ يُقعدنا عنها ولا السأمُ
قد بشّرتنا بها الانباء ناقلةً أمرَ الخليفة يوم الآمرُ الحكمُ
احيا بها امّةً كادت عزائمها الى حضيضٍ من الإخلاد تنهدمُ

واجاد في وصف تقلّب الاحوال جناب الاديب يوسف حيدر :

مضى عصرٌ وذا عصرٌ جديدُ به صرنا نفيدُ ونستفيدُ

وقد ولى زمانُ البؤس عنّا واقبل نحونا زمن سعيدُ
بدأنا واختطتنا ثم عُدنا تبارك ربنا المبدي المعيدُ
كذاك الله يفعل في البرايا فيخفض ثم يرفع من يُريدُ
لحقًّا ان ذا عصرٌ حميدٌ وحقًّا انَّ هـذا اليوم عيدُ

وكما تباشروا بالنجاة وهنّأ بعضهم بعضاً بنيل الاماني كذلك صرفوا نظرهم الى الجيش العثماني وضبّاطهِ البسلاء الذين بفضلهم حصل هذا الانقلاب العظيم فشكروهم واطرأوا حزمهم ودعوا لهم بالفوز والنصر . فقال جناب الشاعر المطبوع محيي الدين افندي الخياط :

بني الشرق هل إلّا الجدادُ الفواضلُ سوكم وهل الّا الجيادُ الشوازبُ
بنيتم وأعليتم وشيّدتم فسُدتم ألا هكذا تُبنى العلى والمراتبُ
تلوا صحف الأنباء هل غير ما روت عن الجيش اروى الشرق والشرق ناشبُ
سرت نبأة من جانب الجيش قد دوت شمارتنا اهتزّت لها والمغاربُ
مضت حقبةٌ يا شرقُ والقومُ نُزّعٌ الى المذاهب الغربي والكلُّ راقبُ
فرُحماك يا شرقُ لا تذلُ وأنتَ قد فقد فُزت بالدستور والدهر شاغبُ
ووالله ما ندري أأحلامُ نائمٍ أألمت بنا ام انت يا دهرُ لاعبُ

وقال الكاتب الاديب نجيب افندي مصوّر يحيّي الجنود البسلاء :

حياكمُ الولى واسعد دولةً رعى هلالاً في سماها يسطعُ
يا قادة الافكار والارواح في قلم يمدُّ وفي حسام يقطعُ
علّمتمونا كيف نحيا امّةً كادت تموت وصوتها لا يسمعُ
علّمتمونا الاتحاد ولم نكن نرضى به بل في سواهُ نطمعُ
وأريتمونا انَّ فيكمُ مجدنا والى حماكم في الشدائد نفزعُ
يا جُند عثمانَ السلامُ عليكمُ تلقد دوت بكمُ الجهاتُ الاربعُ

وقال الشاعر المجيد شبلي بك ملّاط يطنب في مديحهم ويخصُّ منهم زعماءهم وانصار تركيا الفتاة من ابيات :

وشت جنودُ الترك فامتزّت لها الدنيا وضجّ المسلمون وكبّروا
وتعاهدوا ان ينقذوا الوطن الذي بالجور منهُ الجورُ اشمتُ اغبرُ
فتقدّموا والله ناصرهم وقد فازوا وكان النارُ ان يتأخّروا
فلتحيَ تركيا الفتاةُ وردّدوا عاش ابنُ تركيا وعاش العسكرُ

حملت الى الترك الحياة وأنهم لولا الفتاة وقومها لم ينشروا
خرجوا من الاكفان وانتفضوا كما يتنفض العبد الذي يتحرر

وقال جناب الشاعر المفلق عبد الله افندي البستاني في الموضوع:

يا رعى الله مجد كل همام شاد بالسيف المجد للعسكرية
هل يوازي الآساد غير بازي من حمى حوزة العلى بالحمية
لا يباريهم في الصراحة الا صادق البأس أنور الاهلية
بنيا الاحرار في كل قطر شرقنا لا يزال بالمترقية
حاربا الترق في الوغى وبرا مثل سهمين انفذا في الرمية
لم يثبا على المناضلة لكن ربط الجأش الثوب الحرية
واستبانا مستأنسين بشيء كالدواعي بالغيرة العلمية
فاستجر الجهود طرا وقالوا حر ثغور عانح الحرية . . .
ايّ مجد يبلى وهو كمجد كاد يمضي لابيه عما قريبه
انجبا الناس العليقة بنتم بنتي المرهفات شكل العريبه
لا ترالون بالصوارم سورا يدفع الهول عن بني سوريه

واكثر الشعراء في قصائدهم يعودون بالنظر الى الاحوال السابقة ويعددون ما أتى بالاوطان من النكبات وما دهم اهليها من الشدائد لاستبداد المحتال وترفع ذوي الامر فيعارضون بتلك الاحوال السيئة ما اصابوه اليوم بتغير الامور عاقدين الرجاء بانتظام الاحكام. فمتى احسن في هذا الباب جناب الدكتور نقولا فياض حيث قال:

يا بني عثمان انتم امتي اصبحت موضوع اعجاب الامم
سيد الدنيا تاريخ لكم طبع المجد به منذ القدم
في حمى جيش عزيز باسل وامام الشرق كالغيث الهمم
ضرب الظلم بسيف قاطع شق منه الور اكباد الظلم

*

صيح بالترك فكانت صيحة أيقظت من ضجعة الموت الهمم
وسرى للعرش منها هزة شفت يدور من ذاك الصنم
فترا الشرق انقلاب مدهش لو غنيناه في الاحلام لم . . .
ورأينا دولة الماضي وقد كتب الموت عليها لا رحم

وقال الشاعر المجيد نقولا افندي رزق الله:

يا أيها الناس حيّوا ذلك العلما وسبّحوا مانح الحرّية الأسما
وقبّلوا البندقيّات التي فضلت افلاطنا بعد ما كانت لها خدما
وظاهروا عصبة الاحرار انهم اتوا بما اعجز الابطال والهمما
هيا افتحوا يا بني عثمان اعينكم تدفّق النورُ حتّى يبدّد الظلما
تزيّنوا بجديد من ثيابكمُ او فاخلعوا ذلك الثوب الذي قدما . .
وادعوا لمن بعث الدستور من جدث بكت عليهِ عيون العالمين دما
فقد حرمناهُ ظلماً وانقضى زمنٌ عليهِ حتّى حسبناهُ غدا عدما
واليوم جرّد سيف الحقّ صاحبهُ وهاجم الظلمَ حتّى فرّ منهزما
تعانق الشيخُ والتيسُ واصطحبا من بعد ما افترقا ضدّين واختصما
تآلفا في حمى الدستور واتّحدا وزفرت راية التوحيد فوقهما . . .

وبمثلها اجاد الاديب طانيوس افندي عبده في مخمسه حيث قال .

ذلك اليوم يوم لطما العذارا وشجعا نفسا استكبارا
يوم بات اللئام فينا نظارا يوم كنّا نرى الجمع كثرى
لا بخير بل من حيا الحميّه

قد رأينا الاتراك اهل الحماسه أدهشوا الارض بالدما والبساسه
واستطالوا الى مقام الرئاسه فقضوا بأربا اطالوا التعاسه
دون ان يسفكوا دماء زكيّه

ورأينا بيروت ترقص طربا وبها عادتون فيها سربا
بعد ان كانت النجاة فيها لمذ اصبحت كأنّ ذوجا
اخوة بالسلام والمدنيّه

ورأينا القلوب قبل الايادي تركت للسلام والاتحاد
فغدا الآن كلّ حرّ ينادي يا لقومي نفسي فداء بلادي
فلتكن واحداً جموع الرعيّه

يا بني قومنا اذا ما ظفرتمْ فبذاك الجيش المظفّر فزتمْ
وبفضل الاحرار ها قد سلمتمْ فاذكروا الفضل واعجبوا ما حييتم
بجلال الحميّة التركيّه

ومن الشعراء من ذكر اعمال الاستبداد التي تركت في النفوس اسوأ عاقبة فرثى بعضهم الاحرارَ الذين ذهبوا ضحيّة مروّتهم وظلم الحكّام فقدوا بدمائهم ارواح اخلافهم . قال صاحب العزّة سعيد بك شقير :

احرارُ تركيّة انهضتمُ وطناً كم سبلغٌ شاوا دونهُ السحبُ

فكم صبرتم على ضيم ألمّ بكم وما ثنى عزمكم ضيمٌ ولا وصبُ
وكم سعيتم وكان الموتُ يحصدكم فما رجعتم وما خارت لكم ركبُ
ما مات من بطلٍ الّا انبرى بطلٌ للعيش مفتقرٌ في الموت مرتغبُ
في الدردنيل وفي البوسفور أعظمكم منها بقايا عليها المجدُ مكتئبُ
علّمتم الشرق والاقطار قاطبةً انّ العظيم لديه تصغرُ النُّوَبُ
ولا تنالُ المنى والمرءُ مُقتعدٌ في بيته حزمًا انّ المنى تعبُ
ماتوا فعشنا واحيوا بعدهم وطنًا فكلُّ ما نحنُ فيه بعضُ ما وهبوا
ولم تَمُتْ روحهم بل دبَّ ثائرُها في من أتى بعدهم كالنار تلتهبُ

وكذا استدرّ العبرات على ضريح المرتى في سبيل الدستور جناب اسعد افندي ماجم:

اذكروهم في كلّ سعيٍ وبادٍ انهم حرّروا وقابَ العبادِ
بعد ما عاهدوا واي جهادٍ اذهكروا كلّ خادمٍ للبلادِ
من ثرى غارٍ الى البسفور

وفرق فوقهم ايا روح بدّدتْ انتِ مَنْ في هذا السيل تنحّتْ
عن عظامٍ لولا الرّدى ما تنحّتْ تلك اعلاؤها وها اليومَ صحّتْ
بعد عشرين حجّةً وثمانِ

يا شهيدًا لم يَبِ غير الوفاء وطبيبًا ارداهُ وصفُ الدواء
لمريضٍ ما رام بل الشفاء حركك الآن عسكرُ الشهداء
ولارواحكم تابقُ التهاني

واذكروا ذلك الامير العظيما اي صاح الدين الشريفَ الحكيما
امهُ غادر الثنى والنعيما حيثما كان سيّدًا محدوما
وتلاشى في خدمة الاوطان

ومنهم من عدّد مساوئ الجواسيس وقبّح اعمالهم الاثيمة. قال جناب عبد الله افندي البستاني:

بؤسًا لايامٍ علينا سوّدت دُهمَ الليالي والنفوسُ جوارِ
ايّامَ ابناء المهانة عُزّزوا وبنو المهانة خيّموا بصغارِ
فغدا البيونُ على الضمائر غرّةً غدرَ الجوادِ بجلية المضمارِ
واستأنسوا في ظلّ اذيال الدجى فاستوحشوا بطالع الاقمارِ
واستبدلوا لذّاتهم بأذاتهم وتنعّموا بتبرّم الاعمارِ
يتجسّسون من الخفايا طرفةً كانت لأنفاس النسيم تباري

ولكم تواروا ان يمسّوا بالأذى كلّ امرئ بشهاده زَنْدٌ وارِ
يتجرّمون على البرئ جنايةً مع انّهُ مما جنوهُ عارِ
فكأنّ من اخلاقهم صلد الصفا ونفوسهم فُطرت من الدينارِ

وغيرهم رشقوا بألسنة حداد جنايات المرتشين من العُتّال . فمن ذلك قول الشاعر الفكه اسعد افندي رستم يصف دخولهُ بيروت بعد عودته من اميركة :

ودخلتُ بيروت الحبيبة تائقاً للأهل بعد تشوّق وتحسّر
فأتى اليّ مفتّشاً بأمورها قال افتح الصندوق قلتُ لهُ اصبر
فعزيتهُ ووضعتُ في يدهِ خمسديناً فقال الشكرُ يا «حضرتلي»
لفّتْ حصاتُ عايد جمّالُ وكم لفّتْ صا أُعطي سذل الاصفر
هذه البلاد فتيرةٌ فأذا ما فيها الهوا والماء والحسن النظري
ارضٌ على فقرائها ساد لنا لا يستريحُ صاحبُ الرجل السري
ما دامت الحكّامُ فيها تزلفى بنحو صا الخاطي ولا بسحو البرى
لا شمل للساعي الجدّ صا وفا ربحُ هناك لبائعٍ او مشترِ
الجيشُ عربانٌ وجانب حوذهُ خالٍ ومن سنتين لم يقبض «كري»
وطنٌ تعرّفتُ اهلهُ وسيندي بعد الغليل وليس فيهِ «دوري»
لا بدع ان سموّه مسقط رأسنا فرزوحنا سقطت به بتقهقرِ
لكنّ هذي الحال زالت وانحت وتبدّلت حالاً واني تسجّبِ

وتفكّه آخرون بمراقبي الصحافة والمطبوعات . فقال شيخ الشعراء الصريب شرقي بك :

لما رقيبٌ كان ما أنفكّ الحمدُ لله الذي رحّلهْ
لو ابقى اللهُ بيهِ عاشقاً مات بهِ لا بالهوى والولهْ
لو دام الصحف ودامت لهُ لم تنجُ منهُ الصحفُ المنزلهْ
اذا رأى الباطلَ غالى بهِ وان بدا الحقُّ لهُ أبطلهْ
لو خال «باسم الله» في مصحفٍ تُنضب «تحسيناً» عما البسلهْ
وعزّة الله بلا «عزّتي» لا تنفعُ القاري ولا خردلهْ
جرائدُ الترك على عهدهِ كانت بلا شأنٍ ولا مترلهْ
ان تذكر الخنجر لفظاً تُصبْ من شدّة الذعر بهِ مقتلهْ
وان تصفْ قنبلةً لم يَنمْ من هول ذكرى حادثِ القنبلهْ

ومثلهُ في حسنهِ قول جناب عبد الله افندي البستاني في حرّية اليراع :

سرّ الضمير ببادئ الافكار فأنالها ما جلّ من اسرارِ
قد كنتُ ذا وادٍ زمانَ تلثتُها وردتْ حياضَ حمامها بديارِي
يا طالما شاء اليراعُ بكاءها فارتاع حابي دمعهِ المدرارِ
ولَشدّ ما استوقدتُ صدري بعدها بأسًى يذيبُ جوامدَ الاحجارِ
كم عذتُ بالباري فيخالوا انّني كفٌّ بمن هو اليراعة بارِ
لم اذكر الشعرى فخافة انّني في الناس اعط احرف الاشعارِ
أيدين لي حرّ الكلام ومقولي عبدُ الرقيب يشدّهُ بإسارِ
ان قلتُ وا « حرّيا » تزعم انني اسعرتُ نار « الحرب » بالانظارِ
ومن الخطوب الدُّهم اني قائلٌ نلتُ « المراد » ومنتهى الاوطارِ
ان تُنشد ما وافى النفس اهدني سل « الرشاد » ولا يضلّك عثاري
او هاتفٌ ناداك باذعة الذرى المجد « يا وادي » وقيع . ر
بكم كتاب كان طُعم بحبرهِ بعد اعترقهُ اضاع طعم الثارِ
فاذا انحدرتُ الى الثارة خاطري حارت عليّ التي بيدارِ
لكن بعض أسى وقلبي من أذى شبّ قد اصالوا على الاحرارِ

وزاد على فكاهة الشعراء السابقين اصحاب الشعر العامي المعروفين بالقوّالة فنظموا في الاحوال الجديدة القرّاديات والمغنّى ومنظومات شتّى نختار منها ما رأيناهُ جديرًا بالذكر لحسن ذوقهِ وجودة سبكهِ وتفنن قائليهِ . فمن ذلك مخمّس للقوّال الشهير خليل سمعان فرح الدقالي الشحروري (اطياب المشرق ٥ : ٩٥٨ و ١٠ : ٩٥٥) دعاهُ « صوت الحرّية » فقال في جملتهِ :

صوت اليرى من قاع موسكو العميقْ بأنّا وصل فيه من أقوم طريقْ
المجد ظلّل حزب تركيا الفتاةْ وانتصر عهد الحديد على العتيقْ

المجد ظلّل حزب تركيا الفتاةْ والروح لبّتها بعد ذاك الهيئات
والرب اوعيها علا ونصر وحياةْ من بعد ما كانت حزينه باتسه
والظالم راح بخلقها خنيقْ
من بعد ما كانت حزينه باتسه ومظلله بقيود ضمن المحبسه
طلت علينا من مناستر لابسه ثوبًا ظهر من طيه نور ونار
وحامله منشور دستور الوثيقْ
ثوبًا ظهر من طيه نور ونارْ وحامله منشور ابهى من النهارْ
من فوق جبال مقدونيا لما انتشرْ لحونيك احرارها قالوا السلامْ
على فتاة فيها النجاة من كل ضيقْ

سلونيك احرارها قالوا السلام على فتاة منها انتلد عصر السلام
وانور في سطنبول ساد على الظلام والرب على البوسفور طلّ من السما
يسمع ندا من كان في قاعر غريق . . .

حينئذٍ حنّ الملكون من سماه والتفت في كل من يبغي رضاه
وصار الطيبي يقرّ بوجود الاله والبري في عطف خالقه اتصل
والظالم اصبح مجرد للحريق
والعبري في عطف خالقه اتصل بالعالم بالانصاف والحق اتصل
في قوة . . . مقيم الكون عال

وحاراه في لطف قوله وصيغة القول . س الديني القرآن فنظم القرآدية الآتية :

كيف انتشر به . . . السوريه

ندى عسكر السلطان كل . . . اخوان . . . شرق السعادة
بطلق الحريه

كلام سوى بالحقوق وصار الظلم بالخازوق والمتين اصبح مخنوق
واسواء الحالسوريه

صاروا الجراميس السود ساءة رحمه طمام قرود اسلام ونصارى ويهود
صاروا تحت سوريه

صاروا اخوان واحباب من غير ريه وشباب وما بقي احد بجاب
من جاسوس السوريه

يا ما يتموا اطفال ويا ما كتبوا الدلق ويا ما سلبوا اموال
ودانوا حقوق الرعيه

مادام كل الاولاد جاك تسعين يا جواد ليخلف ملك البلاد
مهما صارت عوريه

أه لعب دور الشر نشبها نار وانور انه ينصر العسكر
وتمها كل الجنديه

تمها تركيا الفتاة لولاها كنا امرات وكانت كل المطبوعات
بالزوايا مخفيه . . .

يا عالم متنا وعشنا ورب السما انعشنا ما عاد حدًا يدفشنا
بالتلطف البرسفوريه

ما عدنا نخشى الظلام وصرنا نطلق الاقلام ما من مراقب يتحكم
وبغيم الجرنلجيه

كان مزيّر « للاحوال » ومقطع « للسان الحال » وكان مؤخر « للاقبال »
« والنشره الاسبوعيه »

رنّي بقلب « الشمرات » « والبشير » كل الحسرات « بيروت » تبكي بالدمات
وتقول يا حسره عليّه

من ريحه اطفى « المصباح » وانتنت كل الارياح « والنار » عانوره ناح
ناره صارت مطفيه

من جوره عا « المحبه » رنّى بقلوبنا غبّه زالت عن قلبها الكربه
وحمدت رب البريّه

ولاحد مهاجري اميركة قصيد في هذا المعنى وهو القوّال جرجس افندي عبد الله معارف:

الاحرار عمّال يرجعوا عابلادنا كل منهم كان بالغربه اسير
كانوا اسارى اذ اقلالهم من هولما شابوا الطفالى بالسرير
لا تظن الشعب خامل بالنيام مثلما يفكرك وقايم للشخير
في النادي كل شيء بتوحد وما احد نال المعالي بالجمير
عندك بابنان كل شوم بتفتخر فيو البلاد واليو بالاصبع تشير
ظام الحكومه غصب منهُ بجبره ان يكون ذليل وحيان وحقير
حيث لو تلاظ بكلمه واحده بيسركلوه وبينشروا عقه نشير
كام مرّه فتّشوا ضمن البيوت عشرين مرّه يفتّشوا بوم القصير
عاشان ورثه او جريده عادته للكبير بياقطوا ثم الصغير
ويبرفعوا قرارات لجبا يعادتوا القاضي والقانقام ثم المدير
ذاك الزمان الحمد لله قد مضى والظلم مات وعمره اصبح دثير

ومما نظمهُ في جريدة ارتجالًا القوّال ناصيف مخايل مراد العرموني قولهُ بعد مطالع القصيدة:

يا اسلام وسبحه اسمعوا لي . خذا القضيه اهل الارض بطول وعرض
يقولوا تحيا الحريّه

(الردّة) يا اهالي كسروان صيحوا معي بفرد لسان فليحيَ آل شمعان
ركن الدوله العليه

اهل الارض بطول وعرض يقولوا تحيا الحريّه فليحيا نازلي وانور
والجيوش الشاهانيه

امل الارض بكاملها من اولها لآخرها تركيا الله يحرسها
بجاه رب البريه

بطل روح الاستبداد نادوها بكل البلاد زمان الماضي ما بينعاد
الظلم نجومه مخفيه

مات الظلم وتلاشى الناس ضنت بعاشها الله يديم انور باشا
ابو السلم القويه

ما شا الله مدينة بيروت ونصارها ومسلمين شبا مكيف مسوط وكل البشر فرحانين
فيها ما عاد حدا يموت لا عواس ولا بكين ولا بسمع فيها طرح صوت
السطا والاشرفيه

وما اكتفى شعراؤنا بتزييف ما مضى وكشف القناع عن سيئات الاشرار بل استبشروا في وصف الهناء الحاضر والامان الشامل واطلقوا العنان للآمال الطيبة في الخصام الداء واستقامة العوج فمدحوا العدل وعظّموا الاخاء وأثنوا على المساواة فكادوا يسقوننا كؤس السعادة نشل بسلافة الاجيال الذهبية. قال صاحب العزّة سعيد بك شقير يخاطب الجند العثماني:

اليوم نفرح احرارًا بفضلكمُ تندو وفمي ولا همٌ ولا نصبُ
قد أطلق الحرُّ من سجن أعين به وعاد للوطن المحبوب مغتربُ
فلا جواسيس نخشى من وشايتهم ولا جرائد تثنينا فنرتقبُ
وان مشينا فلا جاسوس يتبعنا وان جلسنا فلا جاسوس يرتقبُ
ننامُ في الليل لا الاحلام تزعجنا ونبتدي الصبح لا خوفٌ ولا رهبُ
كم بين حالٍ انتقلنا كلها طربٌ وبين حالٍ عدمنا كلها رهبُ

وقال اسعد افندي رستم:

يا معشر القرّاء سرّوا وافرحوا بشرى تطيبُ بها قلوب العصر
من ذا يصدّق انّنا في غفلةٍ كبرى هنا من بعد ويلٍ اكبر
فالعدل قد شمل الجميع بظلّهِ والناسُ بين مؤمّلٍ ومكبّر
لمّا رأى الاحرارُ انّ الظلم لم يعمل في الورى فعل الهواء الاصفر
هذا تضيعُ حقوقهُ ويُسامُ ذا خسفًا وذا يقضي بطعنٍ خنجر
منحوا الرعايا سرّهم فتخلّصوا من كل مأمورٍ مجورٍ ويفتري
والخائنون تشتّتوا فتطهّرت اوطاننا من شرّ ذاك العنصر
ولقد غدَت اولياء امورنا حتى لينذر ان يقولوا «.....»
وخلاصة الاقوال يا قرّاءنا حرّ السياسة راق بعد تكدّر

ولقد اقيمُ اليوم مجلس امّـةٍ يقضي ويمضي عن هدًى وتبصّرِ
وعلى الظلام صار يحسر كلُّ من قبلًا عليهِ مخافةً لم يحسرِ

حتى ختمها بقوله :

تحيا المساواة التي لا فرق ما بين ابنِ مرسقَ عندها والسنكري

وهذه الشواعر يجاهر بها العثمانيّون على اختلاف ولاياتهم وتباين نزعاتهم انسجامها من الحدباء والزوراء كما يتغنّى بها اهل الشهباء والفيحاء . قال السيّد عبد القادر العباديّ البغداديّ :

تولّى زمانٌ كنّا فيهِ نُحقَرُ واقبل عصرٌ صرنا فيهِ نوقّرُ
ولاحت بافق الحق شمسُ عدالةٍ جا قد غدا وجهُ السيطرِ يزهرِ
ألا انّ عصرًا جاء بالدول مشرقًا هو العصرُ لا عصرٌ من الظلم اغبرُ
رعى الله عصرًا فيهِ لحرّ راحةٌ يقولُ فلا يخشى الامامَ ويظهرُ
يبيتُ قريرَ العين غير مفكرٍ باكان قبل اليوم فيهِ مفكّرُ

وقال الشيخ معروف افندي الرصافيّ :

أكرمْ بعصرٍ حيانا بالمساواةِ وخصّنا بالهناني والمسرّاتِ
عصرٌ بهِ المرءُ مأمونٌ ومحترمٌ وكان يرمى بانواعِ الضلالاتِ
عصرٌ بهِ العدل وافانا بنشرتهِ والدامُ ولّى باصحاب الدناءاتِ
عصرٌ بهِ قد تآخينا فليس ترى بعد الاخاء طريقًا للعداواتِ
عصرٌ بهِ قد امنّا كلّ عائلةٍ من عصبة الشرّ ابناء السفاهاتِ
اللهُ اكبرُ هذا الدينُ فابتكروا خير الدعاء الى ربّ البريّاتِ

وقال في دمشق الاديب محمّد شاكر ياسين :

قُلْ ولا تخشَ ملامًا او ملَلْ انّ نجمَ الحيفِ والخوفِ أفَلْ

الى ان قال :

فتهنّأ ايّها الشرقيّ وقُلْ بلغ الشرقيّ غايات الأملْ
بلغ الشرقيّ ما يأملهُ وانالَ العلياء بالجدّ وصَلْ
ايها الشرقيّ قد بُلّغتَ ما كنتَ ترجوهُ فهل تمّ خلَلْ
قل لمن عاب الذي يُلفتهُ انّ طيب الورد مؤذٍ بالجُعَلْ
فانبذ البغضاء والحقد ودَعْ كلّ ما فيهِ فسادٌ وزَلَلْ
كنتَ لا تملك امرًا ثم قد صرتَ ذا امرٍ فلا تخشَ الزلَلْ
صرتَ حرًّا ضمنَ قانونٍ بهِ كلّ ما يأملهُ الشرقيّ حصّلْ

كلّ من في الشرق اخوانٌ فلا فرقَ بين الخلق من كلّ الشعل
واذا رمت افتخارًا فافتخر بالذي تأتيه من خير العمل
قُلْ ان كان ظلومًا غاشمًا اعتدلْ او فاعتزلْ فالعدلُ حلّ

ولم يشاؤوا ان تنحصر تلك النعم في الرجال وحدهم بل دافعوا عن حقوق المرأة ايضًا وطالبوا تهذيبها وتحريرها. فقال حضرة الشاعر خليل افندي بطرس حلوه :

أطلقوا روحها أنيروا نُهاها قد كفاكم إذلالها وكفاها
هي لبنت من دونكم ان يكُ م انه كما قيل منكم قد براها
ان تكونوا من الثرى قد نشأتم فلقد كان نشأكم سناها
أجهلتم انّ الاطفال بالاخلاص م تحمى قلوبكم في حماها
فانحروا عنها ألا حرروها نحن نحمى اذا سوت سماها
هل تسوم ايام كنتم على النقد بخير وكنت عنكم بناها
هي مفتاح دنيا وعلا فاطرحوها وأكرموا مثواها
ليس احلى من اكتساب فضيلة فتدي في طريقها خطاها

اكثرهم عرفوا انّ هذا التغيير لا يأتي بنتيجة الّا اذا ثبت على اصول راهنة ودعائم وطيدة لا سيما الاتحاد. قال جناب أيوب افندي ثابت يامن الاقسام :

قائل انه كلّ من رام شرًّا باشر وعاشق الوطنيّة
قسمتنا يدُ المفاسد دهرًا فانقسمنا فكان ذاك بليّة
يا قومي ان تُقسموا لا فلاحٌ انما تفلحون بالمصبيّة
ان ضحكنا فلتضحكوا كفريق او بكينا فموا لبائس سويّة

ومن الاديب بشير الفوزري في التقدم التونسي فضل الاتحاد بقوله :

ليس يُرجى لامّة من فلاح غير ان هبّ كلّهم فردَ هبّة
شمراء الزمان كم نبّهتنا منذ عهد وكم خطيب بخطبة
انّ كسر العصاة سهلٌ ولكن كسرة حزمة بتمام صعبة
نحن ان ظلّ جمعنا في شتات ليس يُرجى لحالنا من تأبّة
من رمى بالدواء وهو عليلٌ كيف تفوى على شفاء الأحبّة

وكذا يحرّض جناب الشاعر نعوم بك شقير على التعاضد :

بني امّي اسودَ البرّ هبّا فموتُ اليوم او نحيا سويّة
حذار فتنةً نمى الينا فحرّكها مطامعُ اشبيّة
حرامٌ أن تُراقَ لنا دماءٌ زكاةٌ وارواحٌ بريّة
ليعضدَ بعضُنا بعضًا ونبني امانينا على أسس قويّة

ففي ضمّ القلوب الخيرُ بادٍ وفي تفريقها شرُّ البليّة
وقيتم كلَّ نازلةٍ وكربٍ وأعلى شأنكم ربُّ البريّة

هذه بعض الشذور الذهبيّة والاقوال الدريّة (١ نظمناها على شبه عقد يزدان به جيد الآداب العصريّة ولعمري انّها لجديرة بالاسم الذي حلّيناها به فدعوناها « بالحماسة الدستوريّة » اذ كلها ترمي الى غرض واحد اي الدستور الذي حظي به العثمانيّون فحسبوهُ كنهاية عالم عتيق كما زندهُ وتضعضع ركنهُ وكدفتتح عهد جديد اشرقت بهجتهُ وتلألأت غرّتهُ فكأني بهم يردّدون جميعاً بلسان واحد قول نعوم بك شقير :

لتهجر بيضُنا الأغمادَ حتى نُقيرَ العدل والدستور فينا
من الدستور لا نرضى بديلاً ولو طُبحت لنا الامُ طبخينا

فكلُّ هذه الاقوال وغيرها ايضاً مما يطول ذكرهُ تعرب عن رعبة الامة في خلع نير العبوديّة وعن ارتياحها الى الامن والسلام والوفاق والانتظام . وهي عواطف شريفة لا ينبذها الّا الذين يودّون الضغط على النفوس ويريدون ترويج بضاعتهم السيئة وغاياتهم الشخصيّة

ولو كان الذين قرضوا القريض ونظموا القصائد اكتفوا بان يترجموا عن هذه العواطف الشريفة لأثنى عليهم كلّ عاقل وشكر احساساتهم اللطيفة واطنب على رغبتهم في الخير العامّ ونقل اقوالهم المسجدّية في كل ناد ورواها على رؤوس الاشهاد وقد يسرّنا انّ بعض هؤلاء الناظمين تجاوزوا الحدود ومالوا الى التطرّف

فمن تلك المبالغات التي لا يرضى بها العقل ويستقبحها شرع الامم المتمدّنة والمحبّة مما نبذ بعضهم لبدإ الرئاسة . لا بأس ان تكون الرئاسة مقيّدة لئلّا تستبدّ ولكن اين هذا من مبدأ اهل الفوضى الذين لا يرضون برئيس ولا سلطان فيعرّضون العمران البشري لكل الآفات وضروب النكبات . وعليه لا يسعنا المصادقة على ما قالهُ في اميركة جرجس افندي عبد الله معارف في جوابه على الاديب اسعد افندي جرجس مارون وهو يدّعي انهُ من المتأخرين لمدافعته عن الرئاسة :

دافعت يا ابن الذكا بدون اقتدار عن الرياسة مع انّها اصل الخراب
بها حكيت وقلت عندي بتعذر حيّاك من الجيل العتيق بتنحب

(١ لا جرم انهُ فاتنا شيء كثير من القصائد الدستوريّة التي لم تبلغ الى يدنا او بلغتنا بعد كتابة هذا الفصل . ولعلّنا نعود اليها ونجمع منها نبذة ثانية اذا توفّرت لدينا المادّة

ثم يعدّد مساوئ البعض حاملاً على المجموع ذنب الافراد فيقول سامحهُ الله:

جبهة السوداء ودقون الكبار خربوا الجبل حتى نتن فيه الغراب
ورجال الحكومه كلهم كانوا غبر ما بهم غير بطنهم مثل الدباب

فيا لله أهكذا يُعرَف فضل مئين من الذوات من اساقفة وكهنة وشيوخ الذين سعوا في اجيال الظلم في الدفاع عن حقوق المظلومين ومساعدة البائسين. وهل نال اليوم الشعبُ كل رغائبه لتشدّق بعض اهل الثورة كما قال:

والجرائد اظهرت افكارها بتقدّم صار جرنال الصغير!!
وانتقد في كلّ لمحه قاصه ما بنا حمّه مليك ولا وزير

واساء بعض الشعراء ايضاً اذ نادوا بالمساواة ليس فقط في الحقوق والعدل ولكن بالرتب ايضاً وتباين الطبقات (راجع مقالتنا في المساواة في المشرق ١١: ٨٦٣) فلا يرضون لا بسيّد ولا امير ولا بعالم ولا غنيّ. وقد احسن جناب الاديب الحلبيّ ويكتور خياط اذ افحمهم بقوله:

عظمَ الخطبُ واعترانا البلاء ودهتنا المصيبةُ الدهماء
وُلِبْنا من الزمان بقوم م بما يفعلونهُ اغبياء
زعموا انّ في المساوي الغاوي فبنوا كيفما اختاروا وشاؤوا
واستباحوا المحرّمات ونادوا تلك حرّيةٌ وهذا اخاء
كلّنا اليوم سيّدٌ وامير كلّنا اليوم في الدلى أكفّاء
ليس فينا علامةٌ بتباهى بمعالٍ بل كلّنا جهلاء

أيها الناسُ قد ضللتم سبيلاً وخبطتم كأنّكم عشواء
ما التساوي ان تستوي ادنياء وسراةٌ او ظلمةٌ وضياء
ما التساوي ان يساوى الجبالُ والتلُّ م وتلو الغاصبَ السفهاء
واذا استشر البناتُ بفكرٍ فعلى تاركُ البلادِ العفاء
فدعوا الفصل للحكيم وقولوا م الحقّ للعاقلين يا جهلاء
ليس من ينكر المساواة حكماً أنّما نحن في الحقوق سواء

ومنهم من اطرأوا حرّيّة المطابع الى حدّ فاحش فجعلوا الطعن بالاشخاص ديناً وشتم الكرام ديدناً. وعليه قد اصاب الاديب جرجي افندي نخله سعد في تنديده بالصحافة السيئة بقوله:

كثرت عندنا الجرائد حتى اوشكت ان تُنافس الشربا
وكثيرٌ يسعى لنيل امتيازٍ فكأنّ الموجود لا يكفينا...

ازعجوا القارئين في كل يوم بمواضيع ملّها القارئونا
ثم ظنّوا حرّية القول ان لم يتّخذوا الطعن والوقيعة دينا
ما ارى في جرائد العصر الّا سفطات تُخَطّ حينًا فحينا
نتمّ واحدٌ يعادُ علينا قد شبعنا من سمعه ورَوينا
ليت شعري كم يبحثون بامر ليس يدرون غثّهُ والسمينا
أيعم بعلم السياسة والفقه وعلم الجغرافيا والفنونا . . .
ليس يكفي ان تدرس الصرف م والنحو وتدري التحريك والتسكينا
انّ فنّ التحرير اصعبُ مسًّا ظنّ بعضٌ وقد اساء الظنونا

واسوأ من هؤلاء اولئك الذين توسّلوا بالدستور فاستباحوا في شعرهم ذمار الدين وانتهكوا حماهُ وبخسوا حقوق ممثليه. فترى هذا ينسب الى الدين كلّ الشرور واسباب التأخر والدينُ كما لا يخفى يأسر بالاخاء والتحاب (راجع مقالتنا عن الاخاء في المشرق ١١ : ٩٣٢). وذاك يزري بالخطباء ويتّهمهم حتى انهُ آثار عليه خواطر الجموع. وغيره يدّعي انّ الدين لا دخل لهُ في العمران وانهُ من المسائل العرضيّة:

حلّ قيدي وشيخكم في حبالي واحكمي لي في المسائل الجوهريّة

وان ذكر الذين حُكموا عليهم بالنظام في وقت الاستبداد تعجّب انّهم لم يُكرّموا كالمة مثل السيد المسيح (زه زه):

مات عيسى فأيقظهُ الوفُ وألوفٌ ماتوا وراحوا ضحيّة!!!

ويجعل آخر كلّ الاديان متساوية كلها صحيحة والله موجدها على اختلافها:

أوَلا تدري انّ ربّك يُعبَدُ بجميع الاديان اذ يتعبّدُ
ذاك يدعو عيسى وهذا محمدٌ انّ فيه في اثنتين مقصدُ
فاشكروا الله موجد الاديانِ

فعلى هذا القول يكون الله موجد دين الهنود والصين والاصنام الوجنة وكل الطواغيت والله تعالى عمّا يقولهُ الكافرون مقصدٌ بتباين هذه الاديان. فليت شعري أيوجد كفر اعظم من هذا. فنشدكم الله ايها الشعراء صونوا قوافيكم من كل امتهان ولا تبتذلوا موهبة جاد بها عليكم المنّان. بل اشحذوها لمدح كل جميل. وترّهوها عن كل قبيح ذليل. فكل ما يشين الاقلام سوف يجد الانسان تبعتهُ في آخر الايام. كما قيل:

فارغب لكفّيك ان تحظ بناطقها خيرًا تخلّفهُ بدار غرورِ
فجميعُ فضل المرء يلقاهُ غدًا عند اللقاء كتابهُ المنشورِ